الأبعادُ التّداوليّةُ في النصوص الكاظميّة

Pragmatics Aspects in Kadhimiya Texts

عباس إسماعيل سيلان

Mr.. Abbas Ismail Seylan

ملخص البحث

إن سيرة الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) يمكن النظر إليها في أكثر من رؤية ، وأنّها ماء معينٌ لا يعرف أطرافه ... لقد جدّ بنا الأمر لاستجلاء طائفة من القضايا التداولية في تلك السيرة العظيمة. فكانت من أبلغ التصويرات التداولية التي بُني على جرائها تحقّق الإنجازية من الكلام . بل جسّدت أحقيّة أهل البيت بالإمامة دون غيرهم بذكر روايات دلّت على إجادتهم للغة غيرهم ، وهذا يعني إمكانية وصولهم إلى جميع الأطياف بلا واسطة ، وهو أمر عجز عنه سائر من حكم الأمة من غيرهم (عليهم السلام) وتبيّن أن الإمام كان يلاحظ المتلقي ، ويوليه أهمية فائقة في التخاطب ، وكشف البحث عن التميّز في استعمال القضايا التداولية من الافتراض المسبق ومتضمّنات القول ، ووجد البحث كيف أن الإمام استعمل أسلوب الاستفهام ليكسب المتلقي ويجرّه إلى التحاور ، وكيف كان يستعمل الإيحاء ليشرك المتلقي في التأمل بمقصده ... ، ويشيع الحجاج عند الإمام إلى حدّ الإقناع والتأثير ، وأظهر البحث أن قصّة واحدة يلحظ فيها فنون التداولية على أوجها ، فحادثة كحادثة العمري نجد فيها الملاءمة والقصدية والحجاج وأفعال الكلام .

Abstract

The biography of Imam Musa bin Ja’far (a.s.) can be looked at from more than one angle.The present study has aimed to elucidate a variety of parliamentary issues in that great biography.One of most important issue is the pragmatic image which appeared in the delivery of his speech. It embodied the eligibility of Ahlul Bayt and more than any other person to lead the Islamic nation . Their sayings and speecges showed their proficiency in language by which they can access all spheres without any intermediary.This feature which was available only to them and no any other person who ruled the Islamic nation.In this research , it was apparent that the Imam was paying much attention to his recipients in the process of interaction . The research revealed greatness in the use of pragmatic issues of presupposition and implications. The research also found that the Imam used the question to win the recipient and engage him in the conversation, and also he used hinting in order to carry the recipient and engage him in mediating the purpose of interaction. Argumentation is also used by the Imam to the extent of persuasion and influence.

المقـدمـــة

الحمدُ لله ربِّ العالمين حمداً واسعاً لا منتهى له أبد الآبدين ، وصلواته الدائمة المضاعفة على محمد وعترته الطاهرة ، وبعد ...

إن النور الذي هدى هذه البسيطة بهداه تَكراراً ومراراً المتمثّل بالنبي وآله لحريٌّ أن يُنتهل من شذاه بين الحين والآخر انتهالاً عاماً على المستويات عامةً ملاحظةً وتأمُّلاً واستلهاماً ودراسةً وتحليلاً ... لقد بات من البديهيّ الرجوع إلى تراث الأئمة (عليهم السلام) الفكري والعملي ، والتنقيب في كل زاوية من زواياه ... ، وليس ببعيد أن تعتمد الدراسات الحديثة الغربية في أن تسلّط الضوء عليه شاهدةً في ذلك على ديمومة ذلك التراث العظيم ، وعموميّته ، وأنّه سبق الأفكار قبل أكثر من ألف عام ويزيد ... ، فالتُمستْ هذه الدراسة لتناول شيء مما ورد عن الإمام الكاظم

(عليه السلام) في ضوء علم اللغة الحديث ، متكئاً على شذرات من تلك السيرة الوضّاءة من حوادث وأقوال ، وتحليلها وفق ما يعرف الآن بـ (التداوليّة) التي ولدت من رحم الفلسفة البراغماتية الأمريكية ، لما في خطاباتهم من أمثلة حقيقية وواقعية وبليغة وأفضل من تلك الأمثلة المصطنعة غالباً مع قلة التمثيل في تلك الدراسات الغربية ، ومن جهة أخرى فهي تنعم بالتنظير المفتقد الى التطبيق الوافي ، أرجو أن تكون هذه الدراسة خطوة في سبيل المعرفة الحضارية ، فكان العنوان (الأبعاد التداوليّة في النصوص الكاظميّة) ليدلّ على التوظيف الفعّال للغة في المجتمع عند الإمام الكاظم (عليه السلام) ، فسنرى كيف أن الإمام كان يؤثّر بالمتلقّي بمجرد النطق بكلمات قليلة تكون بمنزلة الصاعقة على المتلقّي ، وهذه اللغة الفعّالة يمكن قراءتها عن طريق المنهج التداوليّ ، ومن هنا بات التعريف بهذا المنهج ضرورة ملحّة ، وقد قسِّم البحث على ثلاثة مباحث :

الأول : التعريف الموجز بالتداوليّة بما له علاقة بخصوص السيرة الكاظمية ، فقد بدأ هذا المبحث معرِّفاً بالتداوليّة نشأةً ومفهوماً ، وفرّق بينها وبين البلاغة والدِّلالة ، وما الذي جاءت به زيادة على الدراسات الألسنية الأخرى كالبنيوية مثلاً ... ، وكون البحث قصد الإيجاز ، فقد تجد أمثلته هنا أيضاً من السيرة الكاظمية لأجل تسليط الضوء على هذه السيرة المباركة .

الثاني : وتناول أبرز قضايا التداولية ، علما أن النصوص الكاظمية كانت محلاّ مثمرا في التطبيق .

الثالث : تناول ظواهرَ من السيرة الكاظمية ـ بصورة موسَّعة نوعاً ما ـ في ضوء الدراسة التداوليّة فبان أن التداوليّة تجلّت فيه تجليّاً لم تتجلَّ في كلام أصحابها ... ، ولا ننسى في كل ذلك أنّ الظرف الذي مرّ به الإمام يعدّ من الظروف القاسية التي لو تركت من دون تصدٍ لأخذت بالأمّة إلى الهاوية غير أنّ وقوف الإمام ودفاعه عن دين جده كان سبباً إلى أنْ ننعم اليوم بنعمة

الإسلام ، ففي تلك ((الأجواء المملوءة بالظلم والطغيان تصدّى الإمام الكاظم (عليه السلام) لمنصب الإمامة بعد موت أبيه ، وبالرغم مما لاقاه هو وأصحابه من جور بني العباس ؛ فإنّه لم يتخلَّ عن دوره وواجبه الشرعي

طليقاً ومحبوساً ، وقام بأدائه على أكمل وجه وأفضل أسلوب ووسيلة))[١] ، وهذه الظروف إنما تسعف بكلام بليغ ذي حجاج دقيق ومعرفة بفنون الكلام ... ، ويجسّد هذه الأغراض الرؤية التداوليّة ..

وختاماً نقول : ربّنا اجعل هذا العمل خطوة في سبيل الوصول إلى طريق الذين

﴿آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:١٠).

المبحث الأوَّل : التعريف بالتداوليّة

التداوليّة مفهوماً

التداوليّة : مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه ، وطرق وكيفية استعمال العلامات اللغوية بنجاح والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب ، والبحث عن العوامل التي تكون من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة ، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية[٢]، وهي مهمة جداً في تفسير الكثير من الظواهر الكلامية ، وتعدّ أيضاً : أي ((تحليل تداولي يتضمّن بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة))[٣] ،ويقول لنفسن : ((التداوليّة : دراسة العلاقات بين اللغة والسياق كما هي مقعّدة أو كما تعكسها بنية اللغة))[٤] ، والسياق إما أنْ يكون سياقاً لغويّاً ، وإمّا أنْ يكون سياقاً غير لغوي (سياق حالي) ، ويعني الظروف والمقامات التي ورد فيها الكلام[٥] .

وهذا يتضح في التفسير الوارد على لسان الإمام الكاظم (عليه السلام) ؛ فقد قال ((في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة / ٥٧] إنّ الله أعزُّ وأمنعُ من أن يظلم ، وأنْ ينسب نفسه إلى ظلم ، ولكنّ اللهَ خلطَنا بنفسِهِ ، فجعل ظُلْمَنا ظُلْمَهُ وولايتَنا ولايَتَهُ))[٦] ، فلغة النص القرآني لا يمكن أنْ تُحمَل على ظاهرها ؛ فمحال أنْ ينال الظلمُ الله (سبحانه وتعالى) ، وإنّما مزج نفسه تعالى بأوليائه ... ، وهذا فُسِّر من ربط اللغة بالسياق الذي هو تنزيه الله تعالى من أن يناله ظلم عباده ... ، وفي النص فضلاً عمّا ذكر إشارة إلى أنّهم سينالهم الظلم ، وأنّ ظالميهم لم يضروا إلا أنفسهم ، وفي النص إشارة إلى مكانتهم العالية ، فالله إنما مزجهم بنفسه تعالى لِمَا لهم من فضل وكرامة عنده تعالى ، وهذه النتيجة المترتبّة على هذا التفسير هي التداوليّة التي تبحث عن النتيجة المتكوّنة من الكلام .

نشأة التداوليّة

نشأت التداوليّة في فضاء (الباراغماتية) التي ترجمتها (عملي واقعي) ، وهي فلسفة أمريكية تسرّبت إلى اللسانية ، أو أنّ اللسانية استفادت منها[٧] ، فظهر هذا الاتجاه الحديث في الدراسات اللغوية العالمية ومنها الوطن العربي .

وجاءت التداوليّة ردّة فعل على (البنيوية) التي تقف عند حدود البنى النحوية للكلام ،

فقد ((تحولت اللسانيات ... مع البنيويين وخصوصاً المدارس الصورية المتشدّدة إلى علم صوري مغلق ذي إجراءات داخلية خالصة ... ، ومن هنا راحت عن عمد تتبع منهجاً مميتاً للتواصليّة اللغويّة ... بإقصائها لأحوال التخاطب أو الطبقات المقاميّة المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب ، ومن ذلك استبعادها الدلالة التي هي جوهر اللغة الإنسانية ومناط التواصل

اللغوي والاجتماعي ، ولم تَسُدَّ هذه الثغرة إلا جزئياً في أعمال بعض التوجّهات اللسانية الوظيفية ، ثم سُدّت كُلْياً بعد ظهور التداوليّة))[٨] .

دخل مفهوم التداوليّة إلى عالم الدراسات اللسانية ، وكان دخولها معاصراً حديثاً ، والدراسات الغربية كانت في معظمها تعتمد على البعد البنيوي أو البنيوي التحليلي ، والبعدان على الرغم مما بينهما من خلاف يتوقفان على الصورة المادية للإنجاز اللغوي ، فلا يقتربان من الاستعمال

اللغوي ، فجاء البعد اللساني التداولي محاولة لإكمال تلك النواقص في البعدين السابقين ؛ فهو اتجاه معاصر يبحث في الاستعمال اللغوي في السياقات المختلفة ، ويركّز فيه أصحاب هذه الرؤية على علاقة المعنى بالعمل المنجز من القول (القوة الإنجازية للكلام) ، أي : قدرته على التأثير المحسوس لا التأثير النفسي العاطفي ..

هنا نلاحظ الانتقالة النوعية في اللسانيات التداوليّة التي تجاوزت في دراسة الإنتاج اللغويّ البنية الصوتية والنحوية والصرفية والدلالية إلى البحث في الآثار الاجتماعية والإنجازية

للغة ، وأصبحت اللغة لذلك مثالاً للإنجاز والممارسة والفعل[٩].

ففي المثال (هذا طالبٌ مجتهدٌ) الذي تدرسه البنيوية هو البنى اللفظية بينما التداوليّة تأخذ على عاتقها كل إنجاز يتوقّف على هذه الجملة ، ولماذا جاءت بهذه الصياغة ؟ وما المقصد ؟ وما النتيجة ؟ ...

معطيات التداوليّة

دراسة التداوليّة تُعنى بأثر التفاعل الخطابي في موقف الخطاب ، وتستدعي دراسة كلّ المعطيات التي يولِّدها الاستعمال في اللغة ، وتشمل المعطيات[١٠] :

١. معتقدات المتكلم ومقاصده الشخصية وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث اللغوي.

٢. الوقائع الخارجية ومِن بينها الظروف الزمانيّة والمكانية والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة .

٣. المعرفة المشتركة بين المتخاطبين وأثر النص الكلاميّ فيهما . وسنجد وضوح هذه المعطيات لاحقاً ، ولينظر حادثة الإمام الكاظم (عليه السلام) مع بشر الحافي على سبيل التمثيل .

المتكلم والمتلقي في منظار التداوليّة

يلحظ بالعملية التداوليّة العناية الفائقة بعنصري الكلام (المتكلم والمتلقي) ؛ وقد عزا الدكتور إدريس مقبول ذلك إلى ((الاعتقاد بأنَّ الخطاب يتوجّه (من وإلى) أحد الطرفين ، وكذا بالنظر إلى طبيعة التفاعل اللساني وغير اللساني الذي ... يوجَّه بأنّه لا يمكن أن ندَّعي فهمنا للكلام من دون استحضار شروط إنتاجه المحيطة به خاصة عنصري المتكلم والمخاطب))[١١] ، وعملية التواصل بينهما تقود إلى بثّ الحياة بينهما ، فبمقدار تأثرهما ببعضهما ينتجان الأفعال ، وتكون الحياة على هذه الأرض بالإيجاب إذا أدّت الرسالة التداوليّة مقصدها ، وبالسلب إذا فشلت في ذلك .

ولنجاح عملية الترابط بين هذه الأطراف تترتّب عدة عوامل لهذا الترابط منها : وحدة اللغة بين المتكلم والمتلقي[١٢] ، ومنها أيضاً (التراتبية) التي تُعدّ عاملاً مهماً لتحقيق الغاية من الكلام ، أي أنْ يكون المتكلم أعلى رتبة من المتلقي . هذا أدعى إلى

الامتثال لكلامه[١٣].

وحادثة على هذه المناسبة نأخذ ما روي عن أبي بصير ، قال دخلت على أبي الحسن الماضي[١٤] (عليه السلام) ما لبث أنْ دخل علينا رجل من أهل خراسان ، فتكلّم الخراسانيّ بالعربية ، فأجابه هو بالفارسية ، فقال له الخراساني : أصلحك الله ما منعني أنْ أكلمك بكلامي إلا أنّي ظننت أنك لا تُحْسِن ، فقال : سبحان الله ! إذا كنت لا أُحْسِن أنْ أجيبَك ، فما فضلي عليك ؟![١٥] .

ومثله ما روي عن أبي حمزة أنّه قال : ((كنت عند أبي الحسن موسى (عليه السلام) ؛ إذ دخل عليه ثلاثون مملوكاً من الحبشة أُشتروا له ، فتكلّم غلام منهم ، وكان جميلاً بكلام ، فأجابه موسى (عليه السلام) بلغته ، فتعجّب الغلام ، وتعجبوا جميعاً ، وظَنُّوا أنّه لا يفهم كلامهم ، فقال له موسى (عليه السلام) : إنّي أدفع إليك مالاً ، فادفع إلى كل واحد منهم ثلاثين درهماً)) ، فخرجوا ، وبعضهم يقول لبعض : إنّه أفصح منّا بلغتنا ، وهذه نعمة من الله علينا .

قال علي بن أبي حمزة : فلما خرجوا ، قلت : يا بنَ رسول الله ، رأيتك تكلّم هؤلاء الحبشيين بلغاتهم ؟ قال : نعم .

وأمرت ذلك الغلام من بينهم بشيء دونهم ؟

قال : نعم أمرته أن يستوصي بأصحابه خيراً ، وأن يُعطي كل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهماً ؛ لأنّه لمّا تكلم كان أعلمهم ، فإنّه من أبناء ملوكهم ، فجعلته عليهم ، وأوصيته بما يحتاجون إليه ، وهو مع هذا غلام صدق[١٦] .

إذا كانت التداوليّة تشترط وحدة اللغة بين المتكلم والمتلقي ـ كما مرَّ ـ ؛ لذا كان لزاماً على من يبعثه الله نبياً أو ولياً أنْ يكون عالماً بلغات مَنْ أرسل إليهم ، وأمّا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم / ٤) ، فهذا لا ينفي أنه يعلم لغة غيرهم ، ويلاحظ أنّ الآية توضّح ما عنيناه ، وهو وحدة اللغة بين المتكلم والمتلقي ، وهو الذي في الروايتين أعلاه ، فالإمام كان على علم بلغة من يكلّم ، ولو جهل لغتهم لَما كان إمامهم ، والناس أعداء ما جهلوا .

وتوضّح الرواية الثانية ما يعرف الآن بالدرس التداولي بالاستلزام الحواري[١٧] ؛ فالقول : (لأنّه لمّا تكلم كان أعلمهم ؛ فانّه من أبناء ملوكهم ، فجعلته عليهم ، وأوصيته بما يحتاجون إليه ، وهو مع هذا غلام صدق) ، فالإمام أقرّ بتقدّم ذلك الصبيّ على أقرانه ؛ لأنّه رآه قد تقدّمهم في الحديث ، فكان مندوبهم ، وحين أجابه الإمام أجابه بما يعرف الآن بنظرية الملاءمة ـ وستتبيّن لاحقاً ـ فقدّمه ، وأكرمه ؛ إذ راعى مقتضى حاله كونه عند الإمام (غلام صدق) .

وقد حدّد (أوستن) ذلك ضمن صنف معايير مقامية ، التي تشتمل جملة من الشروط المقامية ، وهي ضرورة لنجاح الفعل اللغوي وصيانته من الإخفاق ، وهي أن يكون هناك اتفاق عرفي ومؤسساتي مقبول ومتعارف عليه لدى المتشاركين في عملية التبليغ ... ، ويجب تطبيق هذا الاتفاق في ظروف ملائمة وبوساطة أشخاص مناسبين ، فلا يمكن على سبيل المثال أن يهب المال من لا يملك الثروة أو المال ، ولا يمكن أن يفتتح الجلسة شخص اعتيادي غير

مخوّل له ذلك[١٨] . وبمثل ذا تفرّس الإمام تقدّم ذلك الغلام على أقرانه ، فكونهم سمَحوا له بالتكلم دونهم ، فهذا يعني أنّهم يُكنُّون له الاحترام ويقدِّمونه عليهم ، فليس هو شخصاً اعتياديّاً بينهم ؛ لذا كان المخوّل له في الحديث .

ونجد الراوي في الرواية الثانية لم يفهم ما حدث إلّا بعد أن فهّمه الإمام ، والسبب أنه غاب عن الراوي ما يعرف الآن الاستلزام الحواري الذي يتطلّب إمكانية إدراكية عند المتكلم والمتلقي ... .

وحين أمّر الإمام الغلام عليهم أدلى هذا بما ذكر من التراتبية ، فكونه أعلاهم منزلة يكون الامتثال إلى كلامه أيسر مما لو وكُلَّ غيره بتولي شؤونهم .

مبادئ التداوليّة

أهم مبادئ التداوليّة عند التخاطب هو ((التعاون ومفهوم الاستلزام الخطابي يفترض ... أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون ، فالمشاركون يتوقعّون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتيسير تأويل أقواله)) [١٩] .

ويرافق هذا المبدأ مبدأ التأدُّب كونه مهماً في تواصل العملية الكلامية[٢٠] ، وسنجد هذين المبدأين ماثلين في كلامه (عليه السلام) .

التداوليّة بين البلاغة والدلالة

يرى بعض المتخصِّصين أنَّ البلاغة العربية ((تداوليّة في صميمها ؛ إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلّان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما ، ولذلك فإنّ البلاغة والتداوليّة البرجماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي على أساس أنّ النص اللغوي في جملته إنّما هو نصّ في موقف)) [٢١] ، على أنَّ ثمة طائفة من الأمور لا يمكن للبلاغة العربية القديمة الإحاطة بها[٢٢] ، ومن ذلك أنّها لم تلتفت إلى النتيجة المتبلورة جرّاء العملية الكلامية كالتداوليّة التي تجاوزتها في ذلك ، ففي التداوليّة ((يجب أنْ ينفذ المتكلمون المشاركون الإجراء المتفق عليه على وجه صحيح ومضبوط وبشكل كامل وتام معاً ، فالمراهنة تستدعي موافقة الشخص الآخر كما أن تنفيذ الوصية لا يكون إلا بعد الموت))[٢٣] ، وهذا التباين بين البلاغة والتداوليّة ((طبيعي لتباين الأسس أو الأصول التي أنتجت كلاً منهما والشيء الظاهر في ملاحظة هذه الشروط أنّها تُعنى بعملية الكلام بدءاً بالمتكلم وانتهاءً بالمتلقي مروراً بالفعل الكلاميّ وسياق إنجازه ، وليس جديداً أنْ نقرِّر أنّ البلاغة القديمة أغفلت معظم هذه العناصر ، وأغفلت الجانب التداوليّ من الكلام ، الذي يُعدّ العمود الفقريّ في نظريّة الأفعال الكلامية)) [٢٤] .

أمّا الدلالة فهي قريبة من التداوليّة ؛ فكلاهما يهتم بالمقام والسياق غير أنّ الدلالة تدرس المعنى المجرد خارج نطاق المقام ، والتداوليّة تستدعي الإحاطة بالمقام والمرجعية الثقافية للمتكلم والمخاطب معاً ، ويقدّم مجيد الماشطة الفرق ملتمساً الجملة (هنالك حصان في الحديقة) ، فالدلالة تقول : هو حيوان ، والتداوليّة تقول : هو تحذير من خروج الأطفال ، أو الخوف عليه من السرقة ، أو ينبغي تقديم الطعام له .... ، أو استعماله للذهاب لمكان معيَّن ، فالدلالة

المعنى الثابت المشترك لكل السياقات المحتملة ، وتدرس التداوليّة الملابسات التي تحيط بالمعنى الثابت ، والتي تتغيّر من سياق إلى آخر[٢٥] .

ويمكن إجمال القول بأنّ التداولية تزيد على البلاغة والدلالة من ناحية تركيزها على ما يترتب من الكلام فكلام الإمام بطبيعة الحال بليغ وذو دلالة عند المتلقي وتداوليّ أيضاً ـ كما سيتركّز في هذا البحث ـ كونه يؤكد على ما يحدث في المتلقي بُعيد سماعه لرسالة الإمام .

المبحث الثاني : أهم القضايا التداوليّة

مرّ في المبحث الأول طائفة من الأمور التداوليّة بصورة مقتضبة وسيكون هذا المبحث مُركِّزاً على أهم قضايا التداوليَّة مع التمثيل بالأقوال الكاظمية وطائفة من المسائل التي حدثت في حياة الإمام (عليه السلام) ، وعرضها على الرؤية التداوليّة :

متضمنات القول :

قضية من قضايا التداوليّات اللسانية ، تتعلّق برصد جوانب خفية أو غير ظاهرة (ضمنية) داخل الكلام تؤثر من بعدُ في عملية الانجاز ، وذلك عبر تحكم ما يسمى بالسياقات أو المقامات ، ولاسيما السياقات الخارجية ، ومن أهم الجوانب التي ترصد من خلال متضمنات القول قضيتان :

أ ـ الافتراض المُسبق : في كل تواصل لغوي ينطلق المتكلم والمخاطب (المتلقي) من معطيات وفرضيات معروفة من قبل الطرفين ومتفق عليها ، أي وجود قاسم موضوعي مشترك بين طرفي العملية اللغوية .

وهذه المعطيات المتفق عليها ضرورة مهمة لإنجاح عملية التواصل والإبلاغ فضلاً عن نجاح عملية الفهم ، أمّا في حالة انعدام هذه المعطيات أو في حالة ضعفها ، فانّ ذلك سيؤدي إلى سوء الفهم وبالتالي عدم نجاح عملية التواصل الكلامي تداولياً ، ففي الملفوظ الكلامي :

١ ـ اغلق النافذة .

٢ ـ هل تستطيع غلق النافذة ؟

٣ ـ لا تغلق النافذة .

الافتراض المسبق هنا معروف من قبل طرفي الكلام ، وهو ـ أي الافتراض المسبق ـ وجود نافذة مفتوحة .

لكن إن افتقدنا هذا الفرض المسبق ، فالمتلقي قد لا يجيب ؛ لأنّه لم يفهم الرسالة اللغوية وبالتالي لا يتفاعل معها ، ولا يحقّق إنجازاً أو يقابلها برسالة لغوية بعيدة كل البعد عن الرسالة الأولى تجاهلاً منه ، والسبب أن الخلفية غير مشتركة بين المتكلم والمتلقي[٢٦] .

فمثلاً تسأل شخصاً عن شيء لا يعرفه ، فهو هنا يقف واجماً عن الجواب ، أو أنه تغيب عنه الأسس المعرفية التي يمتلكها المتكلم ، وهنا يغمض عليه مراد القائل كغموض وصية الإمام الصادق (عليه السلام) على أبي جعفر المنصور : فقد روي عن أبي أيّوب الجوزي ، قال : بعث إلي أبو جعفر المنصور في جوف الليل ، فأتيته ، فدخلتُ عليه ، وهو جالسٌ على كرسيٍّ وبين يديه شمعة ، وفي يده كتاب ، قال : فلمّا سلّمت عليه رمى بالكتاب إليّ ، وهو يبكي ، وقال : هذا كتاب محمد بن سليمان يخبرنا أنّ جعفر بن محمد قد مات ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون

ـ ثلاثاً ـ ، وأين مثل جعفر ؟! ثمّ قال لي : أكتب إن كان أوصى إلى رجل بعينه ، فقدّمه واضرب عنقه ، قال : فكتبت ، وعاد الجواب : أنّه قد أوصى إلى خمسة : أحدهم أبو جعفر المنصور ، ومحمد بن سليمان ، وعبدالله ، وموسى ، وحميدة ... فقال المنصور : مالي إلى قتل هؤلاء سبيل[٢٧] . ولو لم يدرك أبو جعفر المنصور حقيقة الوصيّة ، ولو أدركها لَعَلِم أنَّ الإمام الصادق (عليه السلام) لم يُوصِ لغير الإمام الكاظم (عليه السلام) ؛ إذ إنّه من المحال أن يكون قد أوصى إلى الخليفة أو الوالي ، فقد ثبت ظلمهما للرعية ولا ينال الإمامة من وسم بالظلم[٢٨] ، ولا يصدق أن ينسب الأمر لزوجته ؛ فلم يعهد في مذهب أهل البيت أن أسندت الإمامة لامرأة ، ولا يمكن لعبدالله الأفطح أن يتولاها ، فشرط الإمام الصلاح والعصمة ، ولم يكن عبدالله

كذلك ، بل ((لم تكن منزلته عند أبيه منزلة غيره من وُلده في الإكرام ، وكان متهماً بالخلاف على أبيه في الاعتقاد ، فيقال إنّه كان يخالط الحشوية ويميل إلى مذاهب المرجئة ... وكان أفطح الرجلين))[٢٩] ، والفطح في المعجم من العرض ، و((رأس أفطح ومفطوح ومفطح ومفرطح عريض)) [٣٠] ، وأيّا كان معنى الفطح ، فهو لا يخلو من أن يكون عيباً ، والإمام لا يكون إلا سالماً من العُيوب ، وقد روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) : ((الإمامُ المطهَّر من الذنوب ، والمنزَّه من العيوب)) [٣١] ، فلم يبق إذن إلا الإمام الكاظم (عليه السلام) . إذن الرواية لا تخلو من الاستناد إلى الافتراض المسبق الذي غاب عن الخليفة الدوانيقي فلم يدرك المغزى ، فحُفِظت روح الإمام من أن يقتل ، واستمرت الأمة تنعم بوجود الإمام .

وسيتجلّى موضوع (الافتراض المسبق) أكثر عند جارية بشر التي جهلت ما قاله الإمام ...، وسيأتي الحديث عنها .

ب ـ الأقوال المضمرة : أو الكلام المضمر الذي : هو الكلام الذي يحتوي على قدر من المعلومات إلا أنّ تحقيقها في الواقع (أي : إنجازها) وتحويلها إلى فائدة عند المتلقي هو أمر مرهون بسياق الحال (أي المقام) .

مثال ذلك قول القائل : (إن السماء تمطر) .

فالسامع أمامه جملة من التأويلات الدلالية[٣٢] (أي الفهم) ، فمثلاً من المقترحات :

١ ـ المكوث في بيته .

٢ ـ الانتظار والتريّث بالخروج إلى أن ينتهي المطر .

٣ ـ الإسراع والخروج قبل أن يشتد هطول المطر .

٤ ـ عدم نسيان المظلة عند الخروج .

٥ ـ توصيف لظاهرة جوية .

وهذه التأويلات وسواها مرهونة بالطبقات المقامية التي يُنجز في ضمنها الخطاب ، وترافقه في أثناء الكلام . ومما يمثل هذا في أقواله (عليه السلام) قوله : ((احفظْ لسانَكَ تعزَّ ، ولا تُمكِّنِ الناسَ من قيادِ رَقَبتِكَ فتَذُلّ))[٣٣] ، والمقصد هنا يحتمل إضمار قول ، وهو أن حفظ اللسان ينبغي أن يكون عمّا يضرُّه ، وهذا يقود إلى أن يغدو صاحبه عزيزاً ، ودلَّ الشطر الآخر من الكلام على الكناية عن الانجرار وراء أهواء المُضلِّينَ وفسح المجال للسان لأنْ يفشو بالأمراض من غيبة ونفاق وحسد ... فهذا مصيره الذلة ... .

و((روي أنه سئل : ما تأويل قول الله عزّ وجلّ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ (الملك/ ٣٠) ، فقال : إذا فقدتم إمامكم ، فلم تروه ، فماذا تصنعون ؟))[٣٤] ، فقد دلّ بقوله أن المراد بالماء المعين هو الإمام الغائب وهو وان لم يصرح الا ان المقام أثبت ذلك ، وتمثيله بالماء المعين كناية عن كون الإمام معدن الحياة ... وقوله (فماذا تصنعون ؟) يدلُّ على كلام كثير ، فهم :

١ ـ قد يتيهون ضلالاً

٢ ـ يكثر البلاء عليهم

٣ ـ يكون بأسهم شديداً عليهم

٤ ـ سيرتوون من ماء كدر ، ويستطيبون إلى قذاه .

أو كل ما يحتمل المعنى من تأويل .

ومن مظاهر الأقوال المضمرة قوله : (عليه السلام) لهشام : ((يا هشامُ إنّ الزرعَ ينبُتُ في السَّهْلِ ، ولا يَنْبُتُ في الصّفا ، فكذلك الحكمةُ تعمُرُ في قلبِ المُتَواضِعِ ، ولا تَعْمُرُ في قلب المتكبِّرِ الجبّارِ ؛ لأنّ اللهَ جعل التواضعَ آلة العقل ، وجعل التكبُّر من آلة الجهلِ ، ألم تعلم أنَّ من شمَخَ إلى السَّقْفِ برأسِهِ شَجَّهُ ، ومَنْ خفضَ رأسَهُ اسْتظلّ تحته ، وأكنّهُ))[٣٥] ، فهذه الحكمة تضمّ بين طياتها دلالات ومعاني أكثر من ألفاظها ، فقوله (إنّ الزرع ينبت في السهل ، ولا ينبت في الصّفا) لا يقصد به ظاهر هذا الأمر ، وإنّما يُكَنّي به عن قلب الإنسان ، فكلّما كان رقيقاً قبِل الزرع على أنّ المقصود بالزرع هنا هو الحكمة ... ، وكذا ختام قوله ليس المقصود منه ظاهره ، أي رفع رأس وتعرضّه للجرح ... ، وإنّما عَنى به التكبر ومحاولة النظر فوق الحدّ المُقرّ له ...، ومثل ذا كثير في كلامه (عليه السلام) ، نترك للقارئ التأمّل في قوله (عليه السلام) في الدنيا : ((يا هشامُ مَثَلُ الدنيا مثلُ ماءِ البحرِ كلّما شرِبَ منه العطشانُ ازدادَ عَطَشاً حتى يقتلَهُ))[٣٦] .

نظرية الملاءمة

تقابله في بلاغتنا العربية مصطلح (مطابقة الكلام لمقتضى الحال فقط) ، والمراد بمقتضى الحال ـ الهيئة أو الحالة ـ سواء أكانت فكرية أم عاطفية يكون عليها المخاطب إبّان عملية إنتاج الكلام مما يستدعي وجوب الموافقة والمؤالفة بين هذه الحال والبناء التركيبي للكلام كي نتحصّل من بعد على ثمرة الفعل الكلامي[٣٧] .

ولاشكّ أنّ الإمام كان يضع كلَّ كلام في محلّه بدليل أنّه كان للطافة كلامه كان يجذب بالمتلقي إلى التأثر بما يقول ، وهو القائل ((التودد إلى الناس نصف العقل))[٣٨] ، وجاء بـ (إلى الناس) ، وهي لفظة عامة تشمل المخالف والمؤالف ، الكبير والصغير ، تشمل الغني والفقير ، بل تشمل من انتسب للإسلام ومن لم ينتسب ، كل هذه الأطياف لا بُدَّ من التودُّد إليهم في التعامل ، وهذه النظرة الواسعة هي التي يريدها الإمام ويريدها الدين ، وقد قال (عليه السلام) موضحاً كيفية إسداء النصيحة لمن يحتاجها : ((تلطف له في النصيحة ، فإنْ ضاق قلبه ، فلا تعرضن نفسَك للفتنة))[٣٩] ، أي إذا رأى اسوداد قلب المنصوح فعليه أنْ يكفَّ حذَراً من الوقوع في مَغَبّة الفتنة .

وقد مرّ على هذه النظرية بعض الأمور أشرنا إليها سالفاً ، وسيكون هناك تطبيق عليها في نهاية البحث .

القصدية

يقصد بها مقاصد المتكلم وغاياته وأهدافه من الكلام ؛ أي أن المتكلم يكون حاضراً في نصّه[٤٠] ، أو أنّ ((القصدية : هي قدرة العقل على أنْ يُوجّه ذاته نحو الأشياء أو يمثّلها . إن التمثيل هو الوظيفة الأساسية لعقولنا عندما نعتقد ونفكر ونخطّط ونأمل ونرغب ونتصوّر فإننا نمثّل العالم ، وهذا هو ما يجعل حالاتنا العقلية حالات قصدية))[٤١] ، أي افتراض تحقّق الغرض من الكلام ، وقد تعمّق الفيلسوف اللغوي أوستن ومن بعده تلميذه سيرل في إنجاز فلسفة دلالية تداوليّة تهتم بالمضامين والمقاصد التداوليّة وذلك عبر ما سُمِّي بمفهوم الأفعال الكلامية Speech Act بناءً على هذه النظرية (القصدية) .

إن مقاصد المتكلم ليست حكراً على ذاته الإنسانية ، بل هي ملك للآخر (المتلقي) ودعوة للمشاركة عن طريق التأثُّر والتأثير لصنع العالم .

وأفضل أسلوب يؤدي هذه الغاية التوكيد في اغلب صوره ((وإنّما يحتاج إليه ، ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها))[٤٢] ، ومثل هذا ما جاء في قوله بالتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ((لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهنّ عن المنكر ، أو ليستعملنّ عليكم شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لهم))[٤٣] ، وقد ذكر ابن جني (ت ٣٩٢هـ) : ((إنّ العرب إذ أرادت شيئاً مكّنته ، واحتاطت له))[٤٤] . وكذا يدلّ على مقصدية المتكلم الاستدراك الذي ((هو تعقيب الكلام بنفي ما توهّم منه ثبوته ، أو إثبات ما يتوهّم منه نفيه))[٤٥] ، ومن الأول تفسيره (عليه السلام) ـ وقد مر ـ لقوله تعالى : ((﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة / ٥٧] إنّ الله أعزُّ وأمنعُ من أن يظلم ، وأنْ ينسب نفسه إلى ظلم ، ولكنّ الله خلطَنا بنفسِهِ ، فجعل ظُلْمَنا ظُلْمَهُ وولايَتَنا ولايَتَهُ)) فالظلم لا يلحق الله ، وإنما يلحق أولياءه وهذا ما أثبته الاستدراك ، أمّا الثاني فمنه قوله (عليه السلام) : ((ليس حسن الجوار كفّ الأذى ، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى))[٤٦] ، فهنا أثبت الإمام ما كان يمكن أن يتوهّم نفيه ، فالصبر على أذى الجار من حقوق الجوار الذي يقصده الإمام .

أفعال الكلام :

وقد يطلق عليها بالأفعال اللغوية ، ((وهي ظاهرة الأعمال اللغوية غير المباشرة ، فنحن نجد إلى جانب صيغ الأمر الخالصة والبسيطة صيغاً من الالتماس التي يتمّ التعبير عنها بصورة غير مباشرة ؛ إذ لا نقول : (ناولني الملح) أو (آمرك بأن تناولني الملح) ، بل : (هل تستطيع أن تناولني الملح من فضلك) ، ومن المسلّم في هذه الحالة أن جملة (هل تستطيع أن تناولني الملح) مرفقة بـ (من فضلك) أو غير مرفقة بها ليست متكافئة من جهة الدلالة اللغوية التواضعية مع جملة (ناولني الملح) أو (آمرك بأن تناولني الملح) ، فكل واحدة من هذه الجمل محكومة بقواعد مختلفة .... إنّ من يقول : (هل تستطيع أن تناولني الملح) لا يقصد هل بإمكاننا أن نناوله الملح بل يقصد أن نناوله الملح))[٤٧] ، و((ترى استراتيجية (سيرل) في نهاية المطاف أن القائل في عمل لغوي غير مباشر من قبيل (هل تستطيع

أن تناولني الملح) لا ينجز عملاً لغوياً واحداً ، بل اثنين عملاً أولياً يتمثّل بالالتماس الذي ينجز بواسطة عمل ثانوي هو السؤال)) [٤٨] ، وحقيقة الأمر أن استعمال الأسلوب المناسب للمقام الخارجي هو الذي يؤدي إلى تحقيق الفائدة ، فلو كان ذلك السامع لا يعي مقصد المتكلم كان يمكن أنْ يقول : (نعم استطيع) ، ولا يقوم بمناولته الملح ... ، ومع افتراضنا تحقّق ادراك المقام الخارجي للكلام ، فسيكون ((الفعل الكلامي نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداوليّة ، وفحواه أنّه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري وعلاوة على ذلك يُعدُّ نشاطاً مادياً نحوياً يتوسّل بأفعال قوليّة إلى تحقيق أغراض إنجازية كالطلب والأمر والوعد والوعيد ... الخ وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول)) [٤٩] .

ومن هذه الأفعال الكلاميّة فعل التأكيد : و((التأكيد الذي نعنيه من وجهة النظر التداوليّة هو فعل كلامي أو معنى أسلوبي كثير الورود في لغة التواصل اليومية وليس مجرد وظيفة نحوية محدودة وهو الذي عناه ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) حين عقد له باباً في كتاب الصاحبي سماه الإشباع والتأكيد)) [٥٠] ، ومنه قوله (عليه السلام) : ((إنّ الأرضَ لا تخلو من حُجَّة ، وأنا واللهِ ذلك الحجةُ))[٥١] ، وقال أيضاً ((إنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمانِ وبحقيقةِ النفاقِ)) [٥٢] ، فهذا التأكيد الوارد بـ (إنّ) والقسم ولام التوكيد غرضه تثبيت منزلة الإمام ، وأنّه ضرورة من ضرورات الحياة ، وقد زوّده الله تعالى بقدرات تؤهله لتولّي أمور الأمة منها استطاعته التمييز بين المؤمن والمنافق ، لِما لهذا من دور في إدارة الأمة ، ومحال أن يجعل الله وليَّه خدعة بيد المنافق ، ومن ثَمَّ رفع الحجب عنه لهذه القضية ... .

التحذير : وأمثلته كثيرة في كلام الإمام ، فقد كان دائم التحذير من التبعات التي تُؤدي بصاحبها وتُوقِع به ، نحو قوله (عليه السلام) : ((يا هشامُ إيّاكَ والكبرَ على أوليائي والاستطالةَ بعلمك فيمقُتُكَ اللهُ ؛ فلا تنفعُكَ بعدَ مقتِهِ دُنياك ولا آخرَتُك ... يا هشامُ إيّاك ومُخالطةَ النّاسِ والأنسَ بهم إلا أنْ تَجِدَ منهم عاقلاً ومَأموناً))[٥٣] ، وغرض التحذير هنا تجنّب الكبر ، وتجنّب التطاول على الناس ، وتجنّب مخالطة الناس الذين هم ليسوا من العقلاء المأمونين ، فهؤلاء إفسادهم أكثر من إصلاحهم .

ومن التحذير الذي يُترك للقارئ التأمّل فيه قوله (عليه السلام) ، وقد وقف على قبر :

((إنّ شيئاً هذه آخره لَحقيقٌ أنْ يُزْهَدَ في أوله ، وإنّ شيئاً هذا أوله لحقيقٌ أنْ يُخافَ آخرَهُ)) [٥٤] .

الوعد : ويكون في الأمر الحسن ، نحو قوله (عليه السلام) : ((إذا كانَ يوم القيامة نادى منادٍ : أين حواريّ محمد بن عبدالله رسولِ اللهِ الذين لم ينقضوا العهد ؟ فيقوم سلمانُ والمقدادُ وأبو ذرٍّ ... ، ثم ينادي أينَ سائرُ الشيعةِ مع سائرِ الأئمة (عليهم السلام) يوم القيامة ، فهؤلاءِ المتحوّرةُ أولُ السابقينَ وأول المقرَّبين وأول المتحورّين من التابعين)) [٥٥] ، وهذا وإن كان وصفاً بالثناء إلا أنّ غرضه إسداء الأجر لمستحقيه ، وأن الفضل كُلّ الفضل إنّما يكون هناك يوم القيامة ، ومن جهة أخرى يحمل السامعين على التزام الشرعِ الصحيح بالاهتداء بنهج العترة وعدم

الحياد عنه بُغية الفوز والسعادة يوم الفزع الأكبر .

وكذا الحال مع قوله (عليه السلام) : ((صلاة النوافل قربان إلى الله لكل مؤمن)) [٥٦] ، فصحيح أنّ هذا الحديث يبيّن فضل أداء النوافل إلا أنّه من جهة أخرى يدعو إلى الحثّ والإرشاد على إقامة هذه النوافل كونها من أبواب التقرّب إلى الله تعالى ، فعلى المؤمن أن لا يتركها .

إلا أنّ الكلام الإمامي لايمكن تحميله فعلاً كلامياً واحداً فحسب ، وإنّما تجد فيه من الغنى اللغوي ما يجعله مائدة لكل الأطياف ، فلو أخذنا ـ مثلاً ـ ما قاله (عليه السلام) في الدعاء : ((الدعاء أفضل من قراءة القرآن ؛ لأنّ الله (عزّ وجلّ) يقول : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ (الفرقان / ٧٧) وإنّ الله عزّ وجلّ ليؤخّر إجابة المؤمن شوقاً إلى دعائه ، ويقول صوت أحبّ أنْ أسمعه ويعجّل إجابة المنافق ، ويقول صوت أكره سماعه)) [٥٧] .

نجد في بداية هذا النص الوعد لأجل الامتثال ، والحثّ على الأداء ، والترغيب في الدعاء ، لا أن يُخبر بأن الدعاء أفضل من قراءة القرآن فقط ، بل الحثّ الشديد ... ، والترغيب في التماس الدعاء ، وقد يبعد ذلك عن ذهن المتلقي ، كيف يكون الدعاء أفضل من قراءة القرآن ؟! هنا يأتي التعليل الإمام الحجاجي (لأنّ الله (عزّ وجلّ) يقول :﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾) ، ويمكن أن يعرف هذا بالحجاج بـ (تقدير اعتراضات السامع[٥٨]) كما سيأتي .

أمّا القول (وإنّ الله عزّ وجلّ ليؤخّر إجابة المؤمن شوقاً إلى دعائه) ، فهذا فيه (الدعوة إلى عدم اليأس) ، والتشجيع على الاستمرار بالدعاء في حالة تأخّر الاستجابة عسى أن يكون صوته مصداق قوله (صوت أحبّ أنْ أسمعه) ، ودلَّ القول الأخير (ويعجّل إجابة المنافق ، ويقول صوت أكره سماعه) على تحقير المنافق في كل حال ، وإن غنم وكسب .

الحِجَاج :

الأسلوب ((كما يقول بيفون في تعريفه الشهير هو الإنسان أو الرجل ، وقد نافح بوجه خاص فقه اللغات الحديث ذو النزوع المثالي عن هذا المفهوم ... ، وهذه النزعة الكلامية الخطابية الجدلية تتجلّى بنوع خاص في الأسلوب الحجاجي)) [٥٩] ، وأساليب الحجاج المعهودة ، هي[٦٠] :

أ ـ النقض : لغة الكسر ، وفي الاصطلاح أنْ يذكر المعترض شاهداً يبطل دليل الخصم ، نحو ما روي أنّه دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله (عليه السلام) ، ((فقال له : رأيتُ ابنَك موسى يُصلّي ، والنّاس يمُرّون بين يديه ، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) ادعُ إليّ موسى ، فدعاه ، فقال له في ذلك ، فقال : نعم يا أبة ، إنّ الذي كنت أُصلّي له كان أقرب إليّ منهم ، يقول الله تعالى (وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، فضمَّهُ أبو عبد الله إلى نفسه ، ثم قال بأبي أنت و أمي يا مَوْدِعَ الأسرارِ)) [٦١] .

ومنه ما حدث حين ذهب المهديّ العباسي إلى أنّ الخمر لم تحرَّم في القرآن ، فردَّه الإمام (عليه السلام) : ((إذ قال الإمام (عليه السلام) : ((بل هي محرّمة في كتاب الله)) ، فقال : في أي موضع هي محرمة ؟ فقال (عليه السلام) : ((قول الله (عزّ وجل) :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف / ٣٣] ، ثم بعد أن تناول عدة أشياء أخرى حرّمت في هذه الآية ، قال : وأمّا (الإثم) فإنها (الخمرة) بعينها ، وقد قال الله في موضع آخر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[سورة البقرة / ٢١٩] ، والإثم الذي ذكر أنّه حرام في سورة الأعراف بشكل صريح أُريد منه الخمر والميسر في سورة البقرة ؛ وعليه فالخمر محرّم في القرآن بشكل صريح)) [٦٢] .

ب ـ المعارضة : لغة المقابلة على سبيل الممانعة ، وفي الاصطلاح أنْ يُدلَّلَ على نقيض مدلول الخصم أو على نقيض إحدى مقدماته .

من ذلك ما روي ((أنّ أبا يوسف أمره الرشيد بسؤال موسى بن جعفر (عليه السلام) قال ما تقول في التظليل للمحرم قال : لا يصلح ، قال : فيضرب الخباء في الأرض ، ويدخل البيت قال : نعم ، قال : فما الفرق بين الموضعين ؟ قال أبو الحسن : ما تقول في الطامث ؟ أتقضي الصلاة ؟ قال : لا ، قال : فتقضي الصوم ؟ قال : نعم . قال : و لم ؟ قال : هكذا جاء ؟ قال : أبو الحسن و هكذا جاء هذا)) [٦٣] .

ج ـ التسليم الجدلي : وهو أن يسلّم ببعض قضايا خصومه لكي يبرهن على ما يترتّب عليها من بطلان أو فساد ... نحو سؤال بعضهم الإمام عن المعصية ... ، فقال : «إنّ المعصية لا بد أن تكون من العبد ، أو من ربه ، أو منهما جميعاً ، فإن كانت من الربّ فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ، ويأخذه بما لم يفعله ، وإن كانت منهما فهو شريكه والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف ، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر وإليه توجّه النهي وله حقّ الثواب والعقاب ، ولذلك وجبت له الجنّة والنار» [٦٤] .

ولعل منه ما روي من قوله (عليه السلام) لنفيع الأنصاريّ ، وقد أراد الأخير إيذاء الإمام (عليه السلام) ، وأقسم أن يسوءه ، فلمّا خرج الإمام ((أخذ نفيع بلجام حماره ، وقال : من أنت يا هذا ؟ قال : يا هذا إن كنت تريد النسب أنا ابن محمد حبيب الله ابن إسماعيل ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، وإن كنت تريد البلد فهو الذي فرض الله على المسلمين ـ إن كنت منهم ـ الحجّ إليه ، ... وإن كنت تريد الصيت والاسم فنحن الذين أمر الله بالصلاة علينا في الصلوات المفروضة نقول : اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد فنحن آل محمد . خلِّ عن الحمار ، فخلّى عنه ، ويده ترتعد وانصرف مخزيّاً)) [٦٥] .

د . التفريق : وهو أن يميّز في قول الخصم أو قوله بين معانٍ متباينة فيما بينها[٦٦] ، وسنجده في حادثة الإمام مع العمريّ لاحقاً .

هـ ـ تقدير اعتراضات السامع[٦٧] : وهو أن يفترض معترضاً محتملاً بصيغة المفرد (قال) ، أو بصيغة المبني للمجهول (قيل) ، أو بصيغة الجمع (قالوا) ..

و ـ استخراج الشبه وإثارة الشكوك وهو أن يتعقّب نتائج أقوال الخصم فيما تفضي اليه من إشكالات أو احتمالات لا تقبل ، كما في قصة الإمام والزاهد الآتية .

القسم الثالث : طائفة من الحوادث الكاظميّة في ضوء الرؤية التداوليّة أو (اللغة الفعّالة)

ـ قصة الإمام والعمريّ

روي ((أنّ رجلا من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى (عليه السلام) ويسبّه إذا رآه ، ويشتم علياً (عليه السلام) ، فقال له بعض جلسائه : دعنا نقتل هذا الفاجر ، فنهاهم عن ذلك وزجرهم أشد الزجر ، وسأل عن العمري ، فذكر أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة ، فركب ، فوجده في مزرعة ، فدخل المزرعة بحماره ، فصاح به العمري لا تطأ زرعنا ، فتوطّأه أبو الحسن (عليه السلام) بالحمار حتى وصل إليه ، فنزل ، وجلس عنده ، وباسطه ، وضاحكه ، وقال له : كم غرمت في زرعك هذا ؟ فقال له : مئة دينار. قال : فكم ترجو أنْ تصيب فيه ؟ قال : لست أعلم الغيب ! قال : إنّما قلت لك كم ترجو أن تصيب فيه ؟ قال : أرجو فيه مئتي دينار . قال : فأخرج له أبو الحسن (عليه السلام) صرة فيها ثلاثمئة دينار ، وقال هذا وزرعك على حاله والله يرزقك فيه ما ترجو . قال : فقام العمري فقبّل رأسه ، وسأله أنْ يصفح عن فارطه ، فابتسم إليه أبو الحسن (عليه السلام) وانصرف . قال : وراح إلى المسجد ، فوجد العمري جالساً ، فلما نظر إليه قال : ((الله اعلم حيث يجعل رسالته)) ، قال : فوثب أصحابه ، فقالوا : ما قصتك قد كنت تقول غير هذا ؟ قال : فقال : لهم قد سمعتم ما قلت الآن ، وجعل يدعو لأبي الحسن (عليه السلام) فخاصموه وخاصمهم ، فلما رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري : أيّما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت ؟ إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت به شره))[٦٨] .

أولى قضايا التداولية الموجودة في هذه القصة هي مراعاة حال المخاطب ، أي (نظرية الملاءمة) حسب الرؤية التداولية ، فالإمام رفيق بخصمه ؛ وهذا الخصم بنظر الإمام مسكين لا عدوّ ، وبه حاجة إلى عناية من نوع خاصّ ، فهو يفعل الجرم العظيم بحق الإمام ، والإمام يعفو عنه ، ويصفح له ، وفي الوقت الذي نجد فيه الإمام هنا رؤوفاً نجده زاجراً لأصحابه المقرَّبين ، فحين قال له بعض جلسائه : دعنا نقتل هذا الفاجر (نهاهم عن ذلك ، وزجرهم أشد الزجر) ، فأصحابه صالحون لا ينبغي أن ينزلوا إلى هذه المرحلة بأن يلجأوا إلى قتل ذلك الرجل ، بل الأهم هداية الرجل ، والوقت لا يسمح بأن يعرضَ عنهم الإمام كما أعرض عن العمريّ ؛ فعدم إجابته لهم يعني إقدامهم على قتل العمريّ ، و كان (عليه السلام) قاسياً عليهم ليدلّ على عظمة القتل ، وليكون رادعاً إلى أن يقدموا على فعله ... زجرهم لأنّهم عرفوا الحق وأدركوه فلا يمكن لهم أن يتركوه لحظة . أمّا ذلك العمري ، فلم يَرَ نور الهداية بعدئذ فالملاءمة هنا تحققّت على أوجِّها ؛ ففي بادئ الأمر أخطأ العمري وأصحاب الإمام أيضاً أخطأوا إلا أنّ الإمام زجر الأصحاب دون العمري مراعاة لمقام كل منهما ؛ فمعاملة الرجل السقيم ليست كدرجة معاملة الرجل السليم ، وكأنه (ليس على الأعمى حرج) .

ومن أبرز قضايا التداوليّة التي نلحظها أيضاً (القصدية) ، ويقصد بها مقاصد المتكلم وغاياته وأهدافه من الكلام ؛ والإمام كان يهدف بكل كلمة

قالها إلى أمر ما ، فهو حين يقول للعمري بعد أن أعطاه المال (هذا وزرعك على حاله) ، يريد تلطيف التوتر الذي كان عند العمري ، وقد أوضح بهذه العبارة أنه أعطاه المال بلا عوض ، فالعمري كونه يتعرّض للإمام بالسوء إذا حصل على عطية الإمام لا يطمئن إليها ، خلا أن الجملة الحالية (وزرعك على حاله) بيّنت عزيمة المتكلم على توضيح شيء للسامع لا يتضح إلا بذلك القصد الذي أراده الإمام .

ومن جهة أخرى أن القصة بدأت فيما بدأت به باستعمال الاستفهام وهذا الأسلوب إشراك للمتلقي ، وتأكيد على مكانته ، فلم يكن سامعاً سلبيا ، بل اشترك بالعملية الكلامية ، وصولاً إلى ترويض نفسه الجامحة إلى معاداة الإمام ، ففي الوقت الذي كان لا يطيق التكلم مع الإمام أُسْتُدرِج إلى الحديث ولكون الناس درجات وطبقات ؛ لذا وجب أنْ يكون الحديث بما يوافق نوازعهم ، وهذا لا يتأتّى إلا بالحديث عنهم خاصة ؛ لمكانة هذا الأمر في مراعاة الفروق الفردية ؛ لهذا كانت خلوة الإمام (عليه السلام) بالعمري من دون أنْ يكون هناك مرافق مهمة في سبيل تركيز الانتباه على المشكلة من دون تشتيت ؛ فقد يكون فيهم من يفسد أمر الهداية لعجلة أو سوء فِهم ، والنصيحة في السر أفضل منها في العلن . أي أنّ الإمام اختار الظروف المناسبة للمحادثة ، فقد لا يستسلم ذلك العمري لو كان ثمة مرافق للإمام أو لو كان الحديث في المدينة حيث الناس الكثيرون ، بل قد يرفض هدية الإمام ترفّعا عليه (عليه السلام) ، إذ يراه عدوّا له ، ولا ينقاد إلى هَدْيه البتة .

إنّ الإمام بعد أن قدَّم درسه العملي قال لمن رام قتل العمري : ((أيما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت ؟ إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت به شره)) ، الإمام لا يريد أن يبيّن انتصاره على أصحابه ، وانه كسب القضية ، وإنّما قصده من سؤاله إسداء النصيحة ووفق نظرية فعل الكلام أراد بيان موضع الخطأ وذمّ العجلة بإشعار العجول بخطأ عجلته ، فعليه أنْ يقوّم نفسه ، وأن لا يسعى للقدوم على عمل تركه أفضل من إتيانه ، أي إن هذا العمل كان هداية للعمري من جهة ، وللأصحاب من جهة أخرى .

وهذا نوع من الحِجاج الذي نوعه التفريق ، فقد أقنع الإمام أصحابه برؤيته ، وبيَّن لهم الفرق بين قولين من أقوالهم ، فبالأمس يسأله بعضهم قتل العمريّ ، واليوم يسألونه كيف اهتدى ذلك العمريّ ؟!

قصة الإمام مع بشر الحافي

مرَّ الإمام ذات يوم في بغداد متطلّعاً الأحداث وما يحدث في الأمة فلعله يسدي نصيحة أو يساعد محتاجاً أو يحلّ مشكلة ، وما أكثر تلك المشكلات التي خلفها ضعف الاعتماد على الدين القويم وتناسي الفطرة النظيفة ... ، وفي الوقت الذي كان يتجوّل فيه الإمام يتأمّل ما يحدث في أمة جدّه ، وبينما يمرّ من أحد دور بغداد ـ التي كانت لشخص يدعى بشر ـ إذا به يسمع ((الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار ، فخرجت جارية وبيدها قمامة البقل ، فرمت بها في الدرب ، فقال لها : يا جارية ، صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ ؟ قالت : بل حرٌ ، فقال : صدقت لو كان عبداً خاف من مولاه .

فلما دخلت قال مولاها ، وهو على مائدة السكر : ما أبطأك علينا ؟ ، فقالت : حدثني رجل بكذا وكذا ،

فخرج حافياً حتى لقي مولانا الكاظم (عليه السلام) ، فتاب على يده)) [٦٩] .

أقول ما الذي قلب بشراً رأساً على عقب ؛ إنّ الذي يتأمّل هذه القصة يجد ثَمَّة شيئا أشبه بلغز ، ولم يَعرض لي في اطلاع يسير على سرّ ذلك التحوّل الذي عقب مخاطبة الإمام مع جارية بشر ، ولعله يمكن التعرّف على أسرار هذه الحادثة بتوظيف القضايا التداوليّة كونها حادثة كلامية جرت تحت ظروف وملابسات معيّنة ، وتبحث في قضايا الكلام تحت سقف تحقّق في هذه الحادثة أهم مبدأ من مبادئ التداوليّة ألا وهو مبدأ التأدّب ، ذلك لأنّ الكلام يكون مقبولاً بمدى تآلفه عند المتلقي ، فالناصح لا يقول للمخاطب (انجح في الامتحان) على جهة الطلب المستعلي الذي قد يشعره بصغر شأنه كونه مأموراً ، وإنّما يقول : (كم أغدو سعيداً حين أراك ناجحاً في الامتحان) ، فهذا التعبير يقوم مقام قولك (انجح في الامتحان) مع زيادة جاءت من الصيغة الخبرية .

وقد تقول لشخص هل يمكنك فتح الباب ، ولا تريد بذلك أن يقول : نعم أو لا ، وإنما تقصد أن يمتثل لأمرك ، فيقوم بفتح الباب لأنّك بالصيغة المصاغة أخرجت كلامك بصيغة المستفهم السائل لا الطالب الآمر ، وهذا أدعى لأنْ يتقبّله لِمَا فيه من مراعاة لوجدانه .

وإذا عرفنا هذه المقدمة نقول إنّ الإمام استعمل مثل هذا الأسلوب لهداية (بشر) لكن في صورة مبطّنة ، أي على مستوى الإشارة اللطيفة والتلميح الدقيق ... ، ولتوضيح ذا نقطع هذه القصة إلى ثلاث مراحل أو مشاهد ثلاثة قصيرة جداً ، إذ بدأت القصة بلقيا الإمام بالجارية ، فيسألها (صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ) ، وهنا تجيب الجارية منطلقة مما في ذهنها ؟ (بل حرٌ) ، وهي تعني بالحرّ ما ليس بمملوك ملك يمين ، وكونها كانت جارية ، أي مملوكة ملك يمين كانت تنظر إلى الناس وفق ما هي فيه ، فأجابت الإمام عكس ما يريد ، أي أنّ ما يعرف بـ (الافتراض المسبق) لم يتحقّق لديها ، وتنتهي هذه الحوارية القصيرة بجواب الإمام لها (صدقت لو كان عبداً خاف من مولاه) . هنا قد تكون الجارية اقتنعت بكلام الإمام ، وهي لا تظنّ أنّ مفهوم الإمام شيءٌ آخر غير الذي تظنّه . فلما عادت و(دخلت قال مولاها ، وهو على مائدة السكر : ما أبطأك علينا ، فقالت : حدثني رجل بكذا وكذا) ، أي أنّها قصّت الحادثة بما هي . الأمر الذي جعل بشراً ينهض مسرعاً يسأله التوبة ؛ إذ إنّه فهم شيئاً غير الذي فهمته الجارية ، فالعبارة (صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ) لا تعني أنّ المراد بالعبودية هو العبودية التي هي ملك أيمان ، فالسائل كان يعي حين قال (صاحب هذه الدار ...) أنّه ليس مملوكاً ملك يمين ، فكيف يكون مملوكاً ملك يمين من كان يملك داراً في بغداد ؟! إذن أدرك بشر أنّ المراد بالعبودية هي العبودية للمالك الحقيقي ، وعرف أنّه سيحاسب على تأخره عن الامتثال لنداء مولاه كما كان يحاسب جاريته التي تأخرت بعض الوقت ، فكيف به ، وقد تأخّر كثيراً حتى غدا عبداً آبقاً ... ، وقول الإمام الأخير للجارية (صدقت لو كان عبداً خاف من مولاه) عرف بشراً أنّه خارج عن مولاه حقاً ، وأنّه لا بدّ من يوم يعود إليه فيه ، ويمتثل أمامه ، ويحاسَب على كلِّ صغيرة وكبيرة ، لا بُدّ

من وقفة ووقفات نتاج أفعال دنيئة وذنوب متعدّدة ... هذا وذاك قاد إلى المشهد الأخير وهو أن (خرج حافياً حتى لقي مولانا الكاظم (عليه السلام) ، فتاب على يده) ، إذن لقد توافر (الافتراض المسبق) لدى بشر ، وفهم ما لم تفهمه الجارية التي نقلت إليه الحديث ، و(رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه) ، فإذا عدّدنا بشرا المتلقي رقم (٢) بعد أن كانت الجارية المتلقي (١) فإنّ بشراً نجح بفهم الرسالة الكلامية ((ومما لا شكّ فيه أنّ المبدع ينشئ خطابه على وفق قُرّاء معينين حتى لا يستهلك منتوجه ، ولا تتبدّل قراءته ، أو تصبح رسالته تداولية صرفة غايتها النفع والإخبار ، وهذا من شأنه أن يجعل القرّاء متفاوتين ومتباينين عند تلقيهم النصّ)) [٧٠] ، ومن ثَم تباين فهم الرسالة بين كلٍّ من الجارية وبشر . على أن الإمام لم يقل لها قولي له (اعلم أنك عبد إلى الله وانك سترجع إليه ، وسيحاسبك على كل صغيرة وكبيرة ...) ، وإنّما اعتمد على أسلوب إيحائي يمتاز بخصائص تداولية نجملها :

١ ـ في الكلام ما يعرف الآن تداولياً بمبدأ التأدّب ، فالإمام لم يعمد إلى النصح المباشر الذي قد ينفِّر المنصوح ... فهو إذا وصلته رسالة صريحة كان يمكن أنْ يستكبر ولَما كان يذعن وكيف له أن يذعن أمام جاريته التي حاسبها بمجرد أن تأخرت برهة زمنية قليلة ...

٢ ـ في الكلام ما يعرف الآن تداولياً بمضمرات القول ، فالكلام موجز بني على الايحاء المكثّف ليجعل المتلقي أمام فرصة للتنقيب عن مقصد القائل ؛ فما أن كشفت الرموز كانت أرسخ في ذهنه ، وأدلّ على بعثه نحو التوجّه الصحيح .

٣ ـ في الكلام تظهر نظرية الملاءمة ، فالإمام راعى مقام المتلقي ، فطرح جملة جميلة تحرّك المشاعر و لا تجرحها ... ، لقد كانت عبارة الإمام تلائم شخصية بشر التي كانت شخصية منحطّة لا يناسبها أي سماع كلام تقريري مباشر ، فجاء بصورة العتب الذي لا يشعر به ...

إذن عرف بشر المغزى بشيء من التأمّل ، وعاش لحظة الفطرة فهو لا يستحيي ، وهو خارج عمّا رسمه له سيده إنه آبق هارب ، ولا بد أن يعاد إلى سيده ، وسيعود في يوم من الأيام ، فما الذي جعله يتناسى ذلك ليعيش عيشته تلك المتحرّرة . هنا دارت الأرض ببشر ليرى نفسه بأسوأ منظر وأقبح صورة وأتعس حالة . إنّها ساعة الصفر للتوبة كان الإمام المحرِّك لهذه الثورة بأسلوبه أسلوب الإشارة الذي هو أفضل من أسلوب التقرير في مخاطبة الوجدان وإثارة المشاعر ، ورُبّ تلميح أبلغ من تصريح .

قصة الإمام مع الزاهد عبدالله بن الحسن

تتجلّى في الرواية عن ((الرافعي قال : كان لي ابن عم يقال له : الحسن بن عبدالله ، وكان زاهداً من أعبد أهل زمانه يتقّيه السلطان لجدّه في الدين واجتهاده وربّما استقبل السلطان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يغضبه ، فكان يحتمل ذلك له لصلاحه ، فلم تزل هذه حاله حتى دخل يوماً المسجد ، وفيه أبو الحسن موسى (عليه السلام) ، فأومأ إليه فأتاه ، فقال له : يا أبا علي ، ما أحبَّ إليّ ما أنت فيه ، وأسرّني به إلا أنّه ليست لك معرفة ؛ فاطلب المعرفة . فقال : وما المعرفة ؟ قال : اذهب تفقّه

واطلب الحديث . قال : عمّن ؟ قال : عن فقهاء أهل المدينة ، ثم اعرض عليّ الحديث . قال : فذهب ، فكتب ، ثم جاء ، فقرأه عليه ، فأسقطه كُلَّهُ ، ثُمَّ قال : اذهبْ فاعرف وكان الرجل معنيّاً بدينه ، فلم يزل يترصّد أبا الحسن حتى خرج إلى ضيعة له ، فلقيه في الطريق ، فقال له : جعلت فداك إنّي احتجّ عليك بين يدي الله ؛ فدُلَّني على ما تجب عليّ معرفته . قال : فأخبره أبو الحسن (عليه السلام) بأمر أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وحقّه وما يجب له ، وأمْر الحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد ، ثم سكت .

فقال له : جعلت فداك فمن الإمام اليوم ؟ قال : إنْ أخبرتك تقبل . قال : نعم . قال : أنا هو . قال : فشيء استدلّ به . قال : اذهب إلى تلك الشجرة ـ وأشار إلى بعض شجر أم غيلان ـ فقل لها يقول لك موسى بن جعفر : أقبلي . قال : فأتيتها فرأيتها والله تخدّ الأرض خدّاً حتى وقفت بين يديه ، ثم أشار إليها بالرجوع ، فرجعت فأقرّ به ، ثم لزم الصمت والعبادة)) [٧١] .

أول ما يلاحظ طرح الكلام بأسلوب لا يخدش مشاعر المقابل (يا أبا علي ما أحبّ إليّ ما أنت فيه وأسرّي به إلا أنّه ليست لك معرفة ؛ فاطلب المعرفة) وبناء الكلام مصدراً بأسلوب النداء الذي هو (فعل كلام) الهدف منه التنبيه ، وقد جاء في محلّه ، فلا يكون الكلام دائماً بحاجة إلى تنبيه إلا إذا كان المتلقي غافلاً أو حرص المتكلم على أهمية الكلام المنبَّه لأجله مثلاً نلاحظ آيتين من سورة البقرة نجد نبي الله موسى (عليه السلام) فيهما في أثناء خطابه لبني إسرائيل مرة ينادي ومرة لا ينادي كما في قوليه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة / ٥٤) ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (البقرة : ٦٧) ، فالآية الأولى نبّه كليم الله على أمر مهم يصعب الامتثال له ؛ ففيه قتل أنفسهم ، وفي الآية الثانية أمر يسهل الامتثال له ؛ لذا لم يأت بأسلوب النداء فيه كالآية الأولى ... إذن أكّد فعل الكلام (النداء) أهميّة الأمر الذي سيخاطب به ذلك الرجل الزاهد .

ومن هذا يلحظ أهمية الكلام الذي أخبر به الإمام الكاظم العبد الزاهد عبدالله بن الحسن فالمعرفة أمر مهم إلا انه لم يأتِ بصيغة طلب المعرفة مباشرة إلا بعد أن بسط القول من أجل ترغيب المتلقي أن يكون ثَمّة طلب يراعي مقتضى حاله ، وهذا ما يعرف بنظرية الملاءمة ، ولم يشأ الإمام أن يصارحه مباشرة بالتفقّه أو بانتهاج منهج الائمة رَأساً ، وإنّما مهّدَ بالعبارة (يا أبا عليّ ما أحبّ إليّ ما أنت عليه وأسرّني به) ، وهذا من باب ذكر محاسن الإنسان أولاً ومن الخطأ أن يواجه الإنسان بعيوبه بادئ بدء ، ومن ثم كسب الإمام مشاعر المتلقي بهذا الأسلوب المؤدّب ليصارحه بعيبٍ يراه فيه ، وهو (إلا أنه ليست لك معرفة ، فاطلب المعرفة) ، وهنا يتساءل المتلقي عن المعرفة ، فيكون الجواب (تفقّه واطلب الحديث) ، وهذه العبارة عامّة مطلقة لم تُبيِّن مقصد الإمام الحقيقي ؛ لذا (ذهب الرجل ، فكتب الحديث

عن مالك وعن فقهاء أهل المدينة ، وعرضه على الإمام ، فلم يرضَ (عليه السلام) وقد يقول بعضهم لماذا تركه الإمام ليأتي بشيء سينقضه الإمام جملة ؟ الجواب إنّ ذا أمثل لمعرفة الحق الحقيق والامتثال له لا يتمّ إلا بعد معرفة زلل غيره ، وهذا نوع من الحجاج التداوليّ القائم على (استخراج الشبه وإثارة الشكوك) كما مرَّ .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة اليسيرة القصيرة انتهى بنا المقام الى أن السيرة الكاظمية يمكن النظر إليها في أكثر من رؤية ، وأنّها ماء معينٌ لا يعرف أطرافه ... لقد جدّ بنا الأمر لاستجلاء طائفة من القضايا التداولية في تلك السيرة العظيمة . فكانت من أبلغ التصويرات التداولية التي بُني على جرائها تحقّق الإنجازية من الكلام . بل جسّدت أحقيّة أهل البيت بالإمامة دون غيرهم بذكر روايات دلّت على إجادتهم للغة غيرهم ، وهذا يعني إمكانية وصولهم إلى جميع الأطياف بلا واسطة ، وهو أمر عجز عنه سائر من حكم الأمة من غيرهم (عليهم السلام) وتبيّن أن الإمام كان يلاحظ المتلقي ، ويوليه أهمية فائقة في التخاطب ، وكشف البحث عن التميّز في استعمال القضايا التداولية من الافتراض المسبق ومتضمّنات القول ، ووجد البحث كيف أن الإمام استعمل أسلوب الاستفهام ليكسب المتلقي ويجرّه إلى التحاور ، وكيف كان يستعمل الإيحاء ليشرك المتلقي في التأمل بمقصده ... ، ويشيع الحجاج عند الإمام إلى حدّ الإقناع والتأثير ، وأظهر البحث أن قصّة واحدة يلحظ فيها فنون التداولية على أوجها ، فحادثة كحادثة العمري نجد فيها الملاءمة والقصدية والحجاج وأفعال الكلام ... .ولعلّي وإن كنت أزعم أن التداوليّة يمكنها الأخذ بحلّ رموز ذلك الكلام الإمامي إلا أنّ فيه ما ينتظر تطوّراً أكثر وأثرى في الفكر اللساني ، الذي فيه ما يتجاوز عمقا مسارات التحليل اللغوي الجمالي .

الهوامش

١- الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت (عليه السلام) : ١٩٣ .

٢- ينظر : التداوليّة عند علماء العرب : ٥ .

٣- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداوليّة : ٨ .

٤- شظايا لسانية : ٥٩ .

٥- السياق غير اللغوي (بحث) منشور ضمن كتاب مؤتمر الشيخ البلاغي الثالث : ١٣٧ .

٦- المناقب : ٤ / ٦١١ .

٧- التداولية اليوم : ٢٨ ـ ٢٩ .

٨- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر للدكتور مسعود صحراوي بحث منشور ضمن كتاب التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ : ٢٥ ..

٩- ينظر التداولية اليوم : ٤٧ ـ ٤٩ .

١٠- البحث اللساني والسيميائي (بحث) ضمن ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، جامعة محمد الخامس ،١٤٠١هـ : ٣٠١ ـ ٣٠٣

١١- الأسس الابستمولوجية والتداوليّة للنظر النحوي عند سيبويه : ٣٣٠ .

١٢- ينظر : البلاغة والنقد :٢٧٧ ، ٢٩٢ ..

١٣- ينظر : المصدر نفسه : ٢٨٣..

١٤- من ألقاب الإمام الكاظم (عليه السلام) .

١٥- الإرشاد : ٤٣٠ ، وأعلام الهداية :٩ / ٧٨ .

١٦- أعلام الهداية : ٩ / ٧٨ .

١٧- ينظر اللسانيات الوظيفية : ٢٦ ، و الاستلزام التخاطبيّ بين البلاغة العربية والتداوليّات الحديثة ، أحمد المتوكل (بحث) ضمن كتاب التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ : ٢٩٣ وما بعدها .

١٨- ينظر الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو ، للأستاذ يحيى معيطش بحث ضمن كتاب التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ :٩٢ .

١٩- التداوليّة اليوم : ٥٥ .

٢٠- استراتيجيات الخطاب : ٢٨ .

٢١- بلاغة الخطاب وعلم النص : ١٢٤ .

٢٢- ينظر : البلاغة والنقد : ٢٨٢ .

٢٣- المصدر نفسه : ٢٨٤ .

٢٤- المصدر نفسه : ٢٨٥ ، وسيأتي الحديث عن نظرية أفعال الكلام

٢٥- ينظر شظايا لسانية : ٦٣ ـ ٦٤ .

٢٦- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر : ٤٤ .
٢٧- ينظر المناقب : ٤ / ٦٤٢ ، وأصول الكافي : ١ / ١٨٩ .
٢٨- ينظر الإلهيّات : ٤ / ٣٧ ، ١١٦ ـ ١١٧ .
٢٩- منتهى الآمال : ٢ / ٢٠٩ .
٣٠- معجم مقاييس اللغة : ٤٧٦ .
٣١- أصول الكافي : ١ / ١١٩ .
٣٢- ينظر : التداولية عند العلماء العرب : ٣٢ .
٣٣- تحف العقول : ٢٩٢ ، وأصول الكافي : ٢ / ٧٣ .
٣٤- أصول الكافي : ١ / ٢٠٩ .
٣٥- تحف العقول : ٢٩١ .
٣٦- تحف العقول : ٢٩١ .
٣٧- ينظر : في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر : ٤٨ .
٣٨- تحف العقول : ٢٩٦ .
٣٩- تحف العقول : ٢٩٣ .
٤٠- بين تداوليّات سورل وتفكيكية دريدا ، للباحث عبدالله بريمي (بحث) ضمن كتاب التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ :٢٦١ .
٤١- المصدر نفسه : ٢٦١ .
٤٢- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – بيان إعجاز القرآن - : ٢٨ .
٤٣- أعلام الهداية : ٩ / ٢٢٨ .
٤٤- الخصائص : ٣/ ١٠٣ .
٤٥- حاشية الصبان : ١/ ٤٢٣ .
٤٦- تحف العقول : ٣٠٠ .
٤٧- التداوليّة اليوم : ٥٨ .
٤٨- المصدر نفسه : ٥٩ .
٤٩- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر : ٥١ .
٥٠- التداوليّة عند علماء العرب : ٢٠٦ .
٥١- أعلام الهداية : ٩ / ٢١٣ .
٥٢- المصدر نفسه : ٩ / ٢١٧ .
٥٣- تحف العقول : ٢٩٢ .

٥٤- تحف العقول : ٣٠٠

٥٥- أعلام الهداية : ٩ / ٢٢٣ .

٥٦- المصدر نفسه : ٩ / ٢٣٤ .

٥٧- المصدر نفسه : ٩ / ٢٣٢ .

٥٨- يسمى بتقدير اعتراضات الخصم ، وسميناه في الأعلى اعتراضات السامع ، لأن السامع أعم ، ولا يشترط في المحاجَج أن يكون خصماً دائماً .

٥٩- الأسس الابستمولوجية والتداوليّة للنظر النحوي عند سيبويه:٨٢ ـ ٨٣ .

٦٠- ينظر : المصدر نفسه : ٩٩ ـ ١٠١ .

٦١- المناقب : ٤ / ٣٦٢

٦٢- سيرة الأئمة : ٣٨٠ .

٦٣- المناقب : ٤ / ٦٣٦ .

٦٤- المصدر نفسه ٤ / ٦٣٦ .

٦٥- المناقب : ٤ / ٦٣٨ .

٦٦- وأفضل مثال عليه ما جاء على لسان الامام المرتضى (عليه السلام) لأصحابه بعد أنباء السقيفة : ((ما قالتِ الأنصار ؟)) . ـ قالوا : ((قالت : منا أمير ، ومنكم أمير)) . ـ قال (عليه السلام) : ((فهلا احْتَجَجْتُمْ عليهِم بأنّ رسولَ اللّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وصّى بأن يحسن إلى مُحْسِنِهِم ، ويُتجاوز عن مسيئهم)). ـ قالوا : ((وما في ذلك من الحجة عليهم ؟)) . ـ

فقال (عليه السلام) : ((لو كانتِ الإمارَةُ فيهِم لم تَكُنْ الوَصيةُ بِهم)) ، ثم قال (عليه السلام) : ((فماذا قالت قريش ؟))

ـ قالوا : ((احتجت بأنّها شجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم))) . فقال (عليه السلام) : ((احْتَجُّوا بالشَّجرةِ، وأضَاعوا الثَّمرةَ)) ، نهج البلاغة : ١/ ١١٢ .

٦٧- يسمى عند التداوليين بتقدير اعتراضات الخصم ، وأبدل الخصم بالسامع لعلة ذكرت في هامش سالف .

٦٨- الإرشاد : ٤٣٦ ـ ٤٣٧ ، وينظر : مقاتل الطالبيين : ٣١٢ ـ ٣١٣ .

٦٩- منهاج الكرامة : ٧٠ .

٧٠-التلقي القرآني في الدراسات القرآنية الأسلوبية الحديثة (بحث) منشور ضمن كتاب دراسات وبحوث مؤتمر الشيخ البلاغي الثالث : ٢١٢ .

٧١- الإرشاد : ٤٢٩ .

المصادر والمراجع

أولا : الكتب

١. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ، الإمام محمد بن محمد بن النعمان البغدادي الملقب بالمفيد (٤١٣هـ) ، مكتبة الصفا ، قم المقدسة ـ إيران ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ

٢. الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت (عليه السلام) ، السيد أبو هشام عبد الملك الموسوي ، دار الزهراء ، قم ـ إيران ، ط١ ، ١٣٢٧ هـ .

٣. استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغويّة تداوليّة) ، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ـ ليبيا ، ط١ ، ٢٠٠٤م .

٤. الأسس الابستمولوجية والتّداوليّة للنّظرِ النَّحوي عندَ سيبويهِ ، د. إدريس مَقْبول ، عالَم الكُتُب الحديث ، إربد ـ الأردن ، جدارا للكتاب العالميّ ، عمان ـ الأردن ، ط١، ٢٠٠٦ م.

٥. أصول الكافي ، الشيخ محمد يعقوب الكليني (٣٢٩ هـ) ، منشورات الفجر ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م .

٦. أعلام الهداية (الإمام موسى بن جعفر الكاظم) ، المجمع العالمي لأهل البيت ، قم إيران ط٢ ، ١٤٢٥هـ .

٧. الإلهيّات على هدى الكتاب والسنّة والعقل ، الشيخ جعفر السبَّحانيّ ، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) ، مطبعة اعتماد ـ قم ، ط٥ ، ١٤٢٣هـ .

٨. بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل ، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م .

٩. البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد ، محمد كريم الكواز ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٦م .

١٠. تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداوليّة ، د.عمر بلخير ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،لا ط١ ، ٢٠٠٣م .

١١. تحف العقول عن آل الرسول ، أبو محمد بن الحسن بن علي الحرّانيّ من أعلام القرن الرابع ، المكتبة الحيدرية ، ط١ ، ١٤٢٦هـ .

١٢. التداوليّة عند العلماء العرب (دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللسانيّ) ، د. مسعود صحراوي ، دار الطليعة ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥م .

١٣. التداولية اليوم (علم جديد في التواصل) ، آن روبول وجاك موشلار ، ترجمة د. سيف الدين دغفوس و د. محمد الشيبانيّ ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٣م .

١٤. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الرماني (ت ٣٨٨هـ) ، والخطابي (٣٨٦هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تح : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

١٥. حاشية الصبان على شرح الأشموني في شرح ألفية ابن مالك ، ومعها شرح الشواهد للعيني ، الصبان محمد بن علي (ت ١٢٠٦هـ) ، تح : محمود بن الجميل ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

١٦. الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) ، تح : محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٤ ، ١٩٩٠هـ .

١٧. سيرة الأئمة (عرض تحليل للحياة السياسية

والاجتماعية والعلمية للائمة المعصومين) ، مهدي البيشوائي ، تعريب حسين الواسطي ، مؤسسة الإمام الصادق ، ١٤٢٦ هـ .
١٨. شظايا لسانية ، د. مجيد الماشطة ، مطبعة السلام ، البصرة ، ط١ ، ٢٠٠٧م .
١٩. مقاتل الطالبيين ، أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) ، تح : السيد احمد الصقر ، مؤسسة النبراس ، النجف الأشرف ـ العراق .
٢٠. المقاييس في اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (ت ٣٩٥هـ) ، تح : شهاب الدين أبو عمرو ، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان ، (د.ت) .
٢١. مناقب آل أبي طالب ، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩ م .
٢٢. اللسانيّات الوظيفية ـ مدخل نظري ـ ، د. أحمد متوكل ، دار الكتاب الجديد المتحدة ـ ليبيا ، ط٢ ، ٢٠١٠ م .
٢٣. منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل ، الشيخ عباس القمّيّ ، تر : نادر التقيّ ، مؤسسة المحبين ، إيران ـ قم ، ط١ .
٢٤. منهاج الكرامة في معرفة الإمامة ، الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلي (٧٢٦ هـ) تح : الأستاذ عبد الرحيم مبارك ، عروج (المكتبة المتخصصة بأمير المؤمنين) ، قم المقدسة ، ط١ (د . ت) .

ثانيا : البحوث المنشورة في الدوريات والمؤتمرات

١. الاستلزام التخاطبيّ ، أحمد متوكل بحث منشور في ضمن كتاب : التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ ، تنسيق( ) وتقديم : د. حافظ إسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن ، ٢٠١١م .
٢. البحث اللساني والسيميائي بحث منشور في ضمن : ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، جامعة محمد الخامس ،١٤٠١هـ .
٣. بين تداوليّات سيرل وتفكيكية دريدا ، عبدالله بريمي ، بحث منشور في ضمن كتاب : التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ ، تنسيق وتقديم : د. حافظ إسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن ، ٢٠١١م .
٤. التلقي القرآني في الدراسات القرآنية الأسلوبية الحديثة ، د . عواطف كنوش ، و د . ليث داود سلمان ، جامعة البصرة ، بحث منشور في : دراسات وبحوث مؤتمر الشيخ البلاغيّ الثالث ، مؤسسة شهيد المحراب ، دار الضياء ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .
٥. السياق غير اللغوي في النص القرآني ، م. د خليل خلف بشير ، جامعة البصرة ، بحث منشور في ضمن : دراسات وبحوث مؤتمر الشيخ البلاغيّ الثالث ، مؤسسة شهيد المحراب ، دار الضياء ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .
٦. الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو ، يحيى بعيطش ، بحث منشور في ضمن كتاب : التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ ، تنسيق وتقديم : د. حافظ إسماعيل عليوي ، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن ، ٢٠١١م .
٧. في الجهاز المفاهيمي للدرس التداوليّ المعاصر د. مسعود صحراويّ ، بحث منشور في ضمن كتاب : التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ ، تنسيق وتقديم : د. حافظ إسماعيل عليوي ، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن ، ٢٠١١م .

علیه السلام
علیه السلام
علیه السلام
علیه السلام
علیه السلام